المحاضرة الثالثة

البحث البلاغي: نشأته وتطوره (2)

تطور البحث البلاغي أكثر مع فئة المتكلمين واللغويين والنحاة، فالمتكلمون كانوا يعنون بفن الخطابة والمناظرة، وما يتصل بهذا الفن من بسط للحجج وأساليب للإقناع، وكانت مساجد البصرة والكوفة تزخر بهؤلاء المتكلمين ولا سيما في عصر بني أمية، نذكر منهم الحسن البصري من أهل السنة، وواصل بن عطاء المعتزلي، وكان لكل متكلم في المسجد تلاميذ يأخذون عنه ويتدربون على المناظرة والجدال.

وفي القرن الثالث للهجرة تظهر اهتمامات الجاحظ بالنكت والمسائل البلاغية من خلال كتابه "البيان والتبيين"، في أربعة مجلدات، حيث دوّن فيه الكثير من ملاحظات معاصريه وآرائهم، فمثلا ينقل في الكتاب كلام بشر بن المعتمر عن صفات الألفاظ والمعاني، ثم يقول: «وإياك والتوعر، فإن التوعر يُسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف»[1]، ويؤكد ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال فيقول: «فكن في ثلاث منازل؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت»[2]، كما يكثر من الحديث عن حسن الصياغة وكمال التركيب ودقة التأليف وجمال النظم، وفي كتابه "الحيوان" نجد الجاحظ يقرن التأليف وجودة التركيب بجمال اللفظ في قوله: «المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير »[3]، وأما البديع فقد تحدث الجاحظ عن الاستعارة والسجع وأسلوب الحكيم والازدواج، بإيراد نماذج عنها والتعليق عليها، دون أن يذكر تعريفات محددة عنها، ويُعتبر الجاحظ عند بعض النقاد والباحثين هو مؤسس علم البلاغة من خلال كتبه وخاصة كتابه البيان والتبيين.

وقد ساهم اللغويون بنصيب من تشكيل علم البلاغة، من خلال إيرادهم لكثير من الملاحظات البلاغية وتعليقاتهم على نصوص الشعر وآيات الذكر الحكيم، ومن أهم هؤلاء الأعلام ابن قتيبة (ت276هـ) من خلال كتابه "تأويل مشكل القرآن" والمبرد (ت 285هـ) من خلال كتابه "الكامل في اللغة والأدب" وثعلب (ت291هـ) من خلال كتابه "قواعد الشعر".

وأما الشعراء في هذه الفترة فبرز منهم البحتري وأبو تمام، حيث آثر الأول طريقة القدماء واقتفاء أثرهم، مع تأثر معتبر بالجديد، ووقف معه عامة المتكلمين وأصحاب البلاغة العربية الخالصة، في حين اهتم الثاني بالمبالغة في الصنعة اللفظية والإكثار من المحسنات البديعية، ووقف معه الفلاسفة والمجددون.

وهنا يظهر كتاب الخليفة العباسي ابن المعتز (ت 296هـ) في البلاغة حيث أسماه: "كتاب البديع"، وقسّم فيه البديع إلى خمسة أقسام: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد العجز على

---

[1] البيان والتبيين، ج1، ص135.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص135.

[3] الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط02، 1965م، ج03، ص131، 132.

الصدر والمذهب الكلامي، ثم تكلم عن محاسن الكلام والشعر وجعلها ثلاثة عشر قسما ذكر منها الالتفات، وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه، وتجاهل العارف، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، ولزوم ما لا يلزم.

وبعد ذلك ظهرت دراسات وتصانيف بلاغية أخرى تجرد لها بعض المتكلمين والنقاد والمتأدبين، فمن المتكلمين أبو بكر الباقلاني (ت 403هـ) في كتابه "إعجاز القرآن" حيث أثبت فيه أن من إعجاز القرآن ما يتضمنه من وجوه بلاغية سماها وجوه البديع كالاستعارة والإرداف والمماثلة والجناس والمطابقة وغيرها، ومن النقاد ابن طباطبا (ت 320هـ) من خلال كتابه "عيار الشعر"، والآمدي (ت371 هـ) من خلال كتابه "الموازنة"، وعبد العزيز الجرجاني (ت 392هـ) من خلال "الوساطة"، ومن المتأدبين أبو هلال العسكري (ت395هـ) في كتابه "الصناعتين"، وأبو رشيق القيرواني (ت 463هـ) في كتابه "العمدة"، وابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) في "سر الفصاحة"، والرماني (ت 386هـ) في رسالته "النكت في إعجاز القرآن".

في القرن الخامس الهجري تطور التأليف في البلاغة العربية، وازدهرت الدراسات البلاغية في هذه الفترة ازدهارا عظيما على يد إمام البلاغة والإعجاز عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، إذ استطاع الجرجاني أن يضع نظريتي المعاني والبيان من خلال كتابه: "دلائل الإعجاز"، كما سمى علم المعاني باسم النظم، ونبّه «على أن المقصود من النظم ليس اتصال الألفاظ أو ترابطها وتتاليها من حيث هي حروف أو أصوات، وإنما هو تتالي معانيها واتساقها فيما بينها...وليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل »[1]، فما النظم إذن إلا ائتلاف الألفاظ ووضعها الموضع الذي يقتضيه معناها النحوي، وبهذا يريد الجرجاني أن يثبت أن إعجاز القرآن ليس في ألفاظه المفردة، وإنما يكمن في الأسلوب أو الصياغة أو النظم، ذلك مما تضمنه كتابه دلائل الإعجاز، أما كتاب أسرار البلاغة فقد حرر فيه الجرجاني نظرية البيان بما لم يسبقه غيره إليه، كما عالج في الكتاب إلى جانب الاستعارة والكناية والتمثيل بعضا من الفنون البديعية التي سميت فيما بعد بالمحسنات اللفظية كالسجع والجناس فيحللها تحليلا جماليا مع ربطها بالمعنى.

ويضاف إلى الدراسات البلاغية في هذه الفترة كتاب "الكشاف" للزمخشري (ت 538هـ)، إذ يُعدّ هذا التفسير تطبيقا عمليا بارعا لنظريتيْ المعاني والبيان على آي الذكر الحكيم، ولم يقف الزمخشري عند هذا الحدّ، وإنما مضى يكمل النظريتيْن، ويودع كتابه الكشاف أسرارهما ودقائقهما النفيسة، وعلى هذا النحو تكاملت النظريتان [2].

وبعد مرحلة الازدهار تأتي مرحلة الجمود والانحطاط، في الفترة الممتدة حتى القرن السادس الهجري، إذ أصبحت أعمال البلاغيين مجرد تكرار لما استنفذه السابقون من المعاني، فلا جديد في مباحثهم البلاغية، ولم تعدْ التصانيف في هذه المرحلة تعدو تكرارا للمضامين السابقة إما بالشرح أو الجمع أو التلخيص أو إعادة الترتيب، ومن أبرز هؤلاء البلاغيين فخر الدين الرازي (ت606هـ) صاحب كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، والذي لخّص فيه كثيرا من مباحث كتابيْ الجرجاني: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، ومن البلاغيين أيضا أبو يعقوب السكاكي (ت 626هـ) صاحب كتاب "مفتاح العلوم"، حيث قسم

---

[1] الموجز في علم البلاغة، ص91.

[2] يُنظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط09، (دت)، ص271.

علم البلاغة في الجزء الثالث من الكتاب إلى العلوم الثلاثة المعروفة: المعاني والبيان والبديع، ويُعدّ هذا الكتاب من أهم الكتب التي بحثت في كافة فروع اللغة العربية، ومن البلاغيين في هذه الفترة الخطيب القزويني (ت 739هـ) صاحب كتاب "تلخيص المفتاح"، وهو تلخيص للجزء الثالث منه بالتحديد، جنح فيه القزويني إلى التبسيط والاختصار والتوضيح، ثم رأى القزويني أن التلخيص لا يفي بالغرض، فألف كتابه الثاني الذي أسماه: "الإيضاح في علوم البلاغة"، وهو كالشرح للتلخيص.

تطبيق:

ـ تكلم عن تطور البحث البلاغي في العصر العباسي

ـ ما أهمية كل من المصنفات التالية في تأسيس علم البلاغة:

الكامل للمبرد، البيان والتبيين للجاحظ، دلائل الإعجاز للجرجاني، مفتاح العلوم للسكاكي

ـ انسب الكتب البلاغية التالية لمؤلفيها:

إعجاز القرآن، أسرار البلاغة، الإيضاح في علوم البلاغة، سر الفصاحة، العمدة، الكشاف، عيار الشعر، كتاب الصناعتين، تأويل مشكل القرآن

المحاضرة الحادية عشر

الحقيقة والمجاز ـ الاستعارة ـ المجاز المرسل

الحقيقة هي اللفظ المستعمل فيما وضع له في الأصل، أما المجاز فيعرف بأنه «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي»[1]، فإذا كانت العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي مشابهة، فالمجاز حينئذ استعارة، وإلا فهو مجاز مرسل.

وينقسم المجاز إلى:

ـ عقلي: يكون في إسناد الفعل أو ما يقوم مقامه إلى غير صاحبه، كقولنا: بنى عبد الملك بن مروان مسجد قبة الصخرة، فأسند الفعل (البناء) إلى عبد الملك، والحقيقة أنه مجرد سبب في الفعل، وهذا المجاز علاقته سببية، وكقولنا: جنّ جنون الرجل، فأسند الفعل هنا إلى مصدره لا إلى صاحبه، والعلاقة هنا مصدرية، ومثل: تزدحم الشوارع كل صباح، فأسند الفعل إلى الشوارع وهي مكان، والحقيقة هي أن تسند إلى الناس، والعلاقة هنا مكانية، ومثل: هذا الرجل دارت به الأيام فصار فقيرا، فأسند الفعل (دار) إلى زمان، فالعلاقة زمانية، ومثل: هذا الرجل نهاره صائم وليله قائم، فاستعمل اسم الفاعل (صائم، قائم) بدل اسم المفعول، والعلاقة هنا هي الفاعلية، ومثل قوله تعالى: (إنه كان وعده مأتيا)، فاستعمل اسم المفعول بدل اسم الفاعل،والعلاقة هنا هي المفعولية.

ـ لغوي: يكون في نقل الألفاظ من معانيها الحقيقية إلى معان مجازية، وهو نوعان: استعارة ومجاز مرسل

الاستعارة: هي مجاز علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي قد تكون لفظية وقد تكون حالية، والاستعارة في حقيقتها تشبيه حُذف أحد طرفيه، وهي قسمان:

ـ تصريحية: هي ما صرّح فيها بلفظ المشبه به، ومثالها قول الشاعر: وأقبل يمشي في البساط فما درى/ إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي، وقوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)

ـ مكنية: هي ما حذف فيها المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، كقول الشاعر: لا تعجبي يا سلم من رجل/ ضحك المشيب برأسه فبكى، وقول الآخر: وإذا العناية لاحظتك عيونها/ نم فالمخاوف كلهن أمان

إجراء الاستعارة: يعني تحليل الاستعارة بذكر جميع عناصرها

[1] جواهر البلاغة، ص251.